منهج السماع و البحث اللساني.

أ.رشيد حليم

المركز الجامعي بالطارف.

عرف المجتمع الإنساني ظواهر كونية متنوعة، شاركته الوجود و الحياة، و لعل أقدمها على الإطلاق، خلقت معه، و قطنت داخله هي اللغة، ظاهرة مارسها منذ نشأ، تواصلا وتفكيرا غير أن غلغلة النظر في وجودها، و سبر أغوار عناصر تختلف عن حقيقة وظيفتها الأساسية، فلم يترعرع بسط القول فيها إلا بعد قرون خوالي من ظهورها، و تواصل الحديث عنها حتى أصبح ضربا من المعرفة و علما من علوم الوجود يسمى باسمها: علم اللغة.

وهذا الاصطلاح العلمي حديث ([1]) لم يتبلور برسمه الحاضر إلا بعد أن استفاد من جهود القدامى الذين ساهموا في وضع أصوله و تثبيت قواعده، حتى أصبح علما له أدواته ومناهجه و غاياته، لقد اصبح هذا العلم حلقة من حلقات النشاط الإنساني ومعلما من الثقافة البشرية يهفو إلى و ثوقية الضبط العلمي الدقيق و يصبو إلى تملك منهج صارم، يتقيد بجوهر ثابت، هو: اللغة: وسيلة و غاية، دارسة و مدروسة، و بعبارة علمية مقننة: اعتبار اللغة وحدها بؤرة البحث و التنظير، و هو لا يختلقها، و لا يعين واحدة، و لا يخص أخرى، معاضلا بينها أو مفاضلا. إنه يلتفت إلى اللغات

جميعها من أجل تحليلها و وصفها متعضدا بأساليب المنهجية الصارمة التي تتعافى الأحكام المسبقة الشرود، و مشفع بمقصد علمي بعيد، وهو: الحصول على معلومات حول اللغة بشكل كلي و عام و الإيضاح عن المتغاير من وظائفها.

وحدد علم اللغة الحديث ([2]) شرعة مسارها في الالتفاف حول ميدانه: اللغة بوصفها مميزة بخاصتين – على غيرها– من الظواهر الكونية:

أ– الخصيصة الملفوظية Aspect phonétique

ب– الخصيصة الوظيفية Aspect fonctionnel

و أدرك علماء العربية القدامى هذا التمايز الذي ألمع هذه العلامة الكونية المعظم وأشار أحد كبراء العربية إلى دلائليتها بقوله: أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ([3]).وتنبه أوائل باحثينا إلى هذه المزاوجة التي تحملها هذه الاداة، و عزموا على متابعتها بالبحث و الاستقصاء والنظر في أحوال مركباتها، انطلاقا من وسطها الطبيعي الذي فيه درجت و على ألسنة أهلها نطقت. و نعتقد أن هذا المسلك العلمي البادئي منهجية درسهم ضاهى ما يقوم به الباحثون في زماننا، حيث ركزوا في أبحاثهم على سلوك اللغة نفسها كما استقرت على ألسنة أهلها. و من ثمة تسهل مهمة الباحث اللغوي و تستبين مهمته في وصف الحقائق اللغوية كما هي مرصودة و تحليلها، و استخراج الأصول و القواعد منها ([4]).

قلنا، و مثل هذا المنحى مشهود في تراثنا اللغوي، و لم تكن ثقافتنا اللسانية خلوا منه، وبناء على هذه الأهمية، عزمنا على إظهار وجاهته، عقيدة ربط المعاصرة بالأصالة، وعقيدة علمية في إذكاء الوعي العلمي بنفعية أفكار أسلافنا و جديتها، استجابة صريحة لظروف معرفية و لدها اللهج بثقافة الغير و التبشير بسلطانها و استنفار العقول لإحضانها و استعلاء شرعتها.

إيماننا عميق بضرورة استثمار مرجعياتنا المنهجية و ما قدمته من أسس معرفية تنفخ في علاقتنا بتراثنا روحا جديدة تسمح بترصد قواعد الجدة و تحويل قوى النفع فيها، و إسقاط المفاهيم المستحدثة عليها.

وفي هذا المجال نجد صدى لبعض المناهج اللسانية في دراسات القدامى، تحديدا في آثارهم المدونة ([5])، و قد ظلت شامخة بموضوعاتها تطاول ما يظهر في الغرب من أبحاث لغوية جادة و عميقة ([6]) و تصحح ما وصلوا إليه من نتائج ([7]).

إن حركة التأصيل المنهجي في العربية قديمة من حيث الانطلاقة التاريخية، إذا ارتبطت بمكونات الحضارة الاسلامية أساسا، و كانت ترمي – تلك الحركة– إلى وضع القوانين اللغوية التي تكون أساسا لاستنباط الاحكام، و لهذا كان لزاما على كل متقدم لهذا الميدان المعرفي أن يطلع على طرائق الاستدلال التي حوتها أضرب العلوم الإسلامية، و هي عند مؤطريها القدامى: سماع و إجماع و قياس ([8]) و أبدل بعضهم الإجماع باستصحاب الحال. قال ابن الأنباري [ت 577 هـ]. نقل و قياس و استصحاب حال و مراتبها كذلك، و كذلك استدلالاتها ([9]).

ومما لا شك فيه أن هذا التأصيل يدل على ابتكار علماء العربية لمناهج تيسر الكشف عن طرائق البحث، و مشروعية العمل بها، و هي على حد تفصيل أحد الباحثين: أصول النظر العلمي، و قد تعلقت هذه الأصول بين الوصفية و المعيارية، حيث تتمثل الوصفية في السماع و تصنيف المادة اللغوية المسموعة، بينما تتمثل المعيارية في القياس و التعليل ([10]).وبهذا، فمنهج السماع أو ما يطلق عند بعضهم بمنهج النقل([11]) له أقطار تقاطعه مع بعض أسس المناهج الحديثة،خاصة الوصفي الذي استعلاه الدارسون ولجبوا بنظرياته ([12]) والحق نقول، أن بعض قواعد هذا المنهج مرسخة في تأصيل علمائنا القدامى، وأعين بالتخصيص في أصول منهج السماع.

وعندئذ يصبح التساؤل حول طبيعة هذا المنهج مشروعا و التساؤل عن ضروب التداخل بينه و بين المناهج اللسانية، كذلك محقا ؟

ونعتقد أن الإجابة عن السؤالين واجب علمي، و إيصال الإجابة و ربطها بالدرس العلمي المعاصر واجب حضاري أولا و علمي ثانيا.

I - مفهوم السماع:

أ- لغة: السماع أو السمع مصدر الفعل السمع، و السمع حس الأذن([13]).

وفي التزيل العظيم، قوله تعالى: " إنَّ في ذلكَ لمنْ كانَ لَهُ قلبٌ أوْ ألْقىَ السمعَ و هو شهيدٌ" ق/37. وفسره الإمام اللغوي أحمد بن يحي (ثعلب) (ت 291هـ) معناه خلاله، فلم يشتغل بغيره ([14]) وقد سمعه سمعا، والسماع بهذا المعنى حاسة من الحواس الفطرية، والعضو المسؤول عن إنجاز هذه العملية هو الأذن بالاشتراك مع الأعضاء، فهو عملية لاشعورية لا يتحكم الإنسان فيها، حيث يولد المولود مزودا بمقدرة على التقاط كل الأصوات الواقعة في حيز الاستقبال، إثر نموه الطبيعي المتدرج بدء بما لا يستطيع تفسيره، و فهمه إلى غاية أن يصبح قادرا على إدراك كل ما يسمعه، و بناء على هذه المسموعات يتملك الطفل المعطيات اللغوية الأولية، فيستوعبها على ضوء ما توفر لديه من استعدادات فطرية، كما يقول ميشال زكريا: في ضوء هذا الانطباع نشبه ذهن الطفل بآلية مبرمجة هيأتها الطبيعة البشرية لإتمام عملية التعلم ([15])

ومثل هذا التعريف يقترب من مباحث علم النفس الإدراكي، حيث يحاول التعرف على قدرة الطفل على اكتساب اللغة متى ؟ و كيف ؟ و هو أيضا يقع تحت مقاصد علم النفس اللغوي(**Psycho - linguiste**) حيث يتطرق إلى أوجه العلائق بين الفكر واللغة ([16]) منها دراسة سيكولوجية اللغة من زاويتين :

*زاوية التعلم*زاوية الاتصال ([17]) وبرزت أهمية المنهج عند العرب القدامى في ما ذكره ابن خلدون (ت 808 هـ) حين أبرز أهميته قائلا:"السمع أبو الملكات اللسانية" ([18])وهو يقوم في البدء على محاكاة طرائق الخطاب المتداولة و الشائعة في الوسط الاجتماعي وهو أشد ارتباطا بالواقع المنطوق، فهو يزواج ارتباطين، الجنسي الاجتماعي، والإقليمي، وهذا الأداء الإجرائي يلخصه ابن جني منظرا إياه في قاعدة أصولية: ألا

ترى أنك إذا سمعت أكرم سعيد أباه و شكر سعيد أبوه، علمت برفع أحدهما و نصب الآخر، الفاعل من المفعول، و لو كان الكلام شرحا واحدا لا ستبهم أحدهما من صاحبه ([19]) وتبلور هذا الفهم بعد ظهور النظرية التوليدية التحويلية على يد نعوم تشومسكي الذي يرى أن عقل الطفل يحتوي على خصائص فطرية أو ما يمكن أن ينعت بالملكة الفطرية التي تجعله قادرا على تعلم أي لغة إنسانية، و من هنا فله استعداد فطري لان يكون قواعد لغته من خلال الكلام الذي يسمعه بصورة إبداعية ([20])ومن ثمة ارتبطت اللغة بطبائع المتكلمين، وهي بذلك صيغة وراثية مكتسبة و قد غالى علماء العربية خصيصة الطبع و الفصاحة عندما ربطوها بعنصر الجنس و البداوة.وتطبيقا للقاعدة التي قال بها العرب و تشومسكي، نذكر هذا المثال نقله ابن جني عن أبي حاتم السجستاني (ت 250 هـ) قال: "قرأ علي أعرابي بالحرم قوله تعالى:(طيبى لهم وحسن مآب)([21])، فقلت له:طوبى، فقال:طيبى، فأعدت فقلت:طوبى، فقال:طيبى، فلما طال علي قلت:طوطو، فقال: طي، طي، أفلا ترى إلى هذا الأعرابي كيف نبا طابعه عن ثقل الواو إلى الياء فلم يؤثر فيه تلقين ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هز ولا تمرين وما ظنك به إذا خلى مع سومه، وتساند إلى سليقته و نجره" ([22]) وهذا ما اعتقده أحد الغربيين حين اعتبر الطبع ميزة نفسية مكتسبة بالوراثة، فرأى:'أن الفصاحة قد ترجع إلى عوامل جنينية أو وراثية.([23])

ب- اصطلاحا:

أبان علماء العربية قديما على المعاني و الدلالات التي لصقت بهذا المنهج و كشفوا عن أصوله و ضوابطه. و أول لغوي لاحظنا قد تطرق إلى توضيح مفهوم السماع ابن فارس [ت 377 هـ]، الذي فصله بقوله " تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه و غيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مر الأوقات، و تؤخذ تلقنا من ملقن، و تؤخذ سماعا من الرواة الثقات، ذوي الصدق و الأمانة و يتقى المظنون.([24])

وهذا التوجيه العلمي فيه شيء من إشارات التفضيل نلخصها:

- التأكيد على السماع الفطري: الاكتساب الطبيعي للغة عند الطفل.
- السماع التعليمي: يصبح أداة معرفية صناعية للتعلم.
- السماع المنهجي: أداة وظيفية، صالحة للبحث في الدرس العربي و غيره.

وتلقف ابن مالك(ت 672 هـ)هذا الفهم، فزاده إبانة، فوضح الغاية منه، إنه يوثق ما نقله حملة اللغة و جماعها من فصيح كلام العرب، و لهجاتها ([25])، وفي هذا يؤكد" هو الاعتداد بما قاله الفصحاء الذين يوثق بهم و يطمئن إليهم و كان بعض العلماء يرون أن لغات العرب كلها جديرة بالاعتبار، ولا يصح رد إحداها بالأخرى.([26])

وفي هذين التعريفين انتقال إلى الاهتمام بالعامل البشري و العامل الجغرافي في أثناء التعامل مع الظاهرة اللغوية، و قد أسس العرب القدامى هذا المنهج على خطوات هذا العامل، و حرصوا على تحديد مواطن اللغة السليمة، و هو إجراء علمي أكد عليه سوسير وسماه اللسانيات الخارجية، يقول في هذا الشأن"إن من يباشر مسألة علاقة الظاهرة اللسانية بالمكان يخرج من مجال اللسانيات الداخلية و يدخل في مجال اللسانيات الخارجية([27]).ولاشك في أن اهتمام الظاهرة اللسانية الخارجية بالمكان يجد مبررا له في تنويع الحدث اللغوي و اختلافه من منطقة جغرافية إلى أخرى.([28])

وأنعم بعض اللغويين العرب النظر في أصول هذا المنهج و اعتبروه منطلق البحث، وإن اختص بالعربية فيصلح أن يكون لغيرها من اللغات، و ذلك مما نبه إليه أحد اللغويين المحدثين حين بين وظائفه قائلا " السماع عملية صعبة فهو مجموعة من الأعمال تبدأ بالتأملات و تنتهي بالكشف عن القواعد، و يقوم بين البدء و الانتهاء بالتصنيف و التقسيم و الاستقراء (29).

هذا المنهج المقدم في التنظير اللغوي، مطلوب في ذاته ([30]) فهو يسد حاجيات درس العربية و يكشف عن أسرار نظامها اللغوي، فالسماع هو أحد المصادر التي عنى بها العلماء في جمع اللغة ورصد حقائقها و السماع في اللغة العربية يعني أيضا تلقي اللغة من أهلها ويقابله القياس.([31])

هذان منهجان أساسيان في البحث اللغوي العربي، ولكن السماع أسبق منه تطبيقا ووظيفة فلا يصح الثاني دون الأول، فهما متلازمان كما أشار ابن جني فيما نقله السيوطي: " من قال إن اللغة لا تعرف إلا نقلا فقد أخطأ، فإنها قد تعلم بالقرائن أيضا، فإن السامع إذا سمع قول الشاعر (بسيط).

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ** طاروا إليه زرافات ووحدانا.

يعلم أن زرافات في لغة بعض العرب بمعنى الجماعات ([32])، بيد أن السيوطي نفسه عارضه في ذلك، و أشار إلى أسبقية النقل على العقل، فهم نفسره على أن الأول وصفي والثاني معياري، قال:"الطريق إلى معرفة اللغة إما بالنقل المحض كأكثر اللغة أو استنباط العقل من النقل ([33])

وعملية هذا المنهج تتجلى في إحاطته بمنطوق اللغة، معتبرا إياها كائنا لا يحيى منعزلا، و لا يتوقف عن النمو، فهو خاضع لسلطان التطور، ومن ثمة ظل هذا المنطوق معدن الأحكام وتمكن هذا المنهج أن ينبسط على أسس علمية شبيهة بما أصلته المناهج الحديثة من حيث الأساليب و الوظائف، هو أول ما يركز على دور اللغوي في تكامل عمله وانسجامه، بدء بملاحظة الظواهر اللغوية الشائعة و طرائق الاداءات المتنوعة التي قد تنسب إلى التنوع اللهجي ثم يعمد إلى معالجتها بالتصنيف و التبويب و انتهاء بإظهار قواعدها و ضوابطها ([34])

2- مقاربة تأصيلية بين السماع و الدرس اللساني:

وتتجلى هذه المقاربة في بعض الأسس التي سار عليها رواد منهج السماع في درس العربية قديما، و التي وجدت صداها في البحث اللساني الحديث، حيث أكد على ضوابطها القائمون على هذه المباحث، منها:

أ – الإتصال بالواقع اللغوي:

لقد تفطن علماء العربية الأوائل إلى أهمية الاتصال بالبيئات اللغوية للوقوف على مورد اللغة و التعرف عن كثب على مستويات التخاطب بين أفراد القبائل، باحثين في الوقت

ذاته عن المتكلم الانموذج ([35])، فقد نبه الجاحظ(ت 255 هـ)على هذه الخصيصة المثالية التي تعلق بها بعض البداة من الأعراب قال: إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع و لا أنفع و لا أنق و لا ألذ في السماع و لا أشد اتصالا بالعقول السليمة، و لا أفتق للسان و لا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ([36])

وبدأ أعمل اللغويين في درس العربية وفق هذا الأساس الذي سطروه، فانطلقوا في جمع الأثار اللغوية من أفواه أصحابها، و لهذا الغرض، التحقوا ببوادي الحجاز و العراق بغية ملاقاة الأعراب في مواطنهم و مشافهتهم، فعاشر أبو عمر و بن العلاء (ت 154 هـ) البدو أزيد من أربعين سنة و سجل عنهم من المسموعات ما ملأت بيتا له إلى قرابة سقفه([37]) ودون الخليل(ت 175 هـ)من منطوقهم ما يقرب من عشرين رطلا([38])، وذكر ابن الأنباري(ت577 هـ)أن الكسائي(ت 189 هـ)قد أنهى خمسة عشرة قنينة حبرا في تسجيل المرويات عن الأعراب ناهيك عما حفظه([39])واشتهر الأصمعي(ت 21 هـ) بقوة حافظته وسعة ذاكرته، قيل إنه حفظ اثني عشرة ألف أرجوزة، و كان قد ساهم في وضع بعض المعاجم المختصة في الخيل و النبات،([40])، رغم عفته و ظلفه فقد تنكر له بعض متعصبي البصريين ورموه بأوصاف مهينة ([41]). وألح الرواة و اللغويون العرب على ملامسة الواقع اللغوي الحاضر و كشفه بمشاهدة الأفراد و الاستماع اليهم و هم يعبرون عن أغراضهم بكل عفوية و النقل عن قبائلهم نزيلة البوادي و الحضر.

ومثل هذا الصنيع كان مما حث عليه أصحاب المنهج اللساني الحديث كما يبينه أحد منظريه ، تتجه النظرية اللسانية الحديثة إلى الإنسان صاحب اللغة أو ما يطلق عليه المتكلم السامع في مجتمع لغوي متجانس، يعرف لغته كاملة و هذا الشرط ضروري لأن الهدف هو معرفة القوانين التي تجعل الإنسان يتميز بهذه القدرة على اللغة.([42])

كما تزامنت عملية النقل اللغوي مع طرائق اللغويين في جمع المادة اللغوية وتوثيق الآثار المحكية بعد ما أدى الخطاب الشفوي دوره في إذكاء شعلة التسابق نحو تسجيل المعرفة المسموعة و أصبح هذا المنهج رائد المناهج وأحدثها يطبق في علم العربية، كما أصبح

المنهج الوصفي أول المناهج يطبق في الدرس اللساني، حيث يسعى كما يسعى الأول إلى تسجيل الواقع اللغوي تسجيلا أمينا بهدف الإلمام بمستويات الخطاب و كشف حقائق النظام فيه([43])

ب- **مشافهة المصدر البشري :**

احتذى العلماء جانبا من الدراسة الميدانية عند جمعهم للغة فقد انتقلوا إلى المصدر اللغوي، و اتصلوا به مباشرة، و جعلوا كلامه المعتاد و حديثه اليومي دليلا منهجيا اعتمدوا عليه في بناء أصولهم، و قد يختلف المصدر البشري كأن يكون متكلما عاديا بسطا أو ذا مترلة و هذه الطريقة السليمة سطرها سيبويه(ت 180هـ) من قبل فكثيرا ما يرد حديثا عن الأعراب ممن سمع مباشرة منهم أو من حدثه عنهم، ولسان حاله يقول:

سمعنا بعض العرب يقول([44])

و سمعنا من العرب([45])

و ذلك قول العرب سمعناه منهم ([46])

و سمعنا بعض العرب الموثوق بهم ([47])

و من الفصحاء الذين تحدث إليهم سيبويه و قد بلغوا شأوا في فصاحة اللسان وقوة البيان، نذكر أبا فقعس وأبادثار وأبا الجراح.

وتيمن اللغويون بعده هذه النهجة، و أضافوا إليها شيئا من إبداعهم، فقد سن ابن جني مجموعة من القواعد التي يجب أن تتوفر في المصدر البشري([48])، ومنها أن يكون مشهودا له بفصاحة اللسان، و يعيش بعيدا عن الحاضرة، وقد روى الأصمعي بعض الألفاظ ارتجلت من بدويين موغلين في البداوة هما: رؤبه وأبوه، فذكر كلمة (الجبر) وتعني الملك، و كلمة (ماريه) و معناها اللؤلوية، قال ابن جني:إن الاعرابي إذا قويت فصاحته و سمت طبيعته تصرف وارتجل ما لم يسبقه أحد قبله فقد حكى عن رؤبه وأبيه أنهما كان يرتجلان ألفاظا لم يسمعاها ولا سبقا إليها([49])

و لم يقف عند حد الاتصال بل تعداه إلى اختبار المصدر اللغوي و امتحان لغته، وهل تأثرت بمستحدث الظروف، وقد تكررت لقاءاته مع أبي عبد الله الشجري أحد فصحاء قبيلة عقيل نزيلة العراق، من ذلك هذه المطارحة العلمية التي يتقمص فيها ابن جني دور الاستاذ الذي يطبق مخططا بيداغوجيا للتأكد من سلامة لغة الممتحن وبقاء فصاحته قال: وسألته يوما فقلت له كيف تجمع (دكانا) فقال: دكاكين، فقلت: سرحانا، قال: سراحين، فقلت: فقرطانا؟قال: قراطين، فقلت: فعثمان، قال:عثمانون، فقلت له: هل قلت أيضا عثمانين؟ قال: إيش عثمانين؟ أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته، والله لا أقولها أبدا.([50])

وخلاصة هذا الحوار العلمي المؤسس الذي يعرف الدرس الديداكتيكي قيمته أن الأستاذ خلص إلى يقين: أن ذاك المصدر اللغوي مازال محافظا على سلامة لغته، ودله على ذلك تفريقه في الصوغ القياسي الفطري بين الجموع، فكان جمع التكسير لغير العاقل و السالم للعاقل.

و هذا الإتجاه في تتبع المورد اللغوي لا يختلف عما سنه الوصفيون المحدثون فهاهو ماريوباي يقرر: إن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، و هو الذي يعرف فنيا باسم الراوي([51]) فهؤلاء الرواة يمكن أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله وتقعيده([52])

جـ- التقريرات الوصفية:

ونقصد بها الأحكام الصادرة مباشرة من معاينة مستوى المتكلمين، و طرائق نسيج كلامهم، وما دخل عليه من جديد، وما تعاوره من خطل، وذلك أن العرب أمة كثيرة القبائل وهي لا تعرف الإستقرار بل تعيش على الترحال والتنقل، وقد تكون لغاتها في تلك الرحلات مؤثرة أو مؤثرة أو حدث فيها تعديل، وفي هذا حرص علمي على

المصادر نماذج من ذلك و لم يبق هذا الأسلوب عملا نظريا بل طبقه العلماء و أحسن ما رصدناه في هذه الطريقة، تطلع ابن جني إلى ضبط اللغة السليمة باستخدام ذلك الأسلوب المنهجي. وللوصول إلى خلاصة تقريره اللغوي وحكمه على المادة اللغوية المنتقاة، اختار فردين من قبيلة واحدة، و لكنهما متفاوتان في فصاحتهما و طبق عليهما هذا الاختبار و قد اختار له أسئلته، قال سألت مرة أبا عبد الله و معه ابن عم له دونه في فصاحته وكان اسمه غصنا، فقلت لهما كيف تحقران حمراء؟ فقالا: حميراء فقلت: سوداء؟ قالا: سويداء، و واليت من ذلك أحرفا وهما يجيئان بالصواب، ثم دسست في ذلك (علباء) فقال غصن (علباء) وتبعه الشجري فلمّا هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه عليبي ورام الضم في الباء([54]) إلا أنهم أشد استنكارا لزيغ الإعراب منهم بخلاف اللغة لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا ينكرها إلا أن أهل الجفاء و قوة الفصاحة يتناكرون خلاف اللغة تناكرهم زيغ الإعراب.([55])

وهذا التمثيل اللغوي، فحمراء و سويداء على وزن (فعلاء) مؤنث حقيقي و(علباء) مؤنث غير حقيقي إذ همزته للإلحاق زائدة([56]). والتقرير الذي قصده ابن جني هو معرفة أصول هذه الكلمات من حيث النوع، ووظف قاعدة أصولية معروفة في الصرف: التصغير يرجع اللفظ إلى أصله و حقيقته، و لذلك تنبه ابو عبد الله الشجري إلى المستوى الفصيح والصحيح في بنيتي اللفظتين و لم يدرك ابن عمه غصن ذلك، و النتيجة أن الأول أفصح ولغته جديرة بالأخذ والنقل.

ويقترب هذا التقرير من قواعد التحليل في المنهج التوزيعي حيث حاول رواده قصر البحث على التغيرات الفنولوجية و النظم على أساس شكلي.([57])

هذا واضح في عمل ابن جني فالحق أن ما قرره لم يكن تأويلا أو افتراضات خارجة عن واقع اللغة، إنما كان تقريرا وصفيا محضا كما يسمع و يرى.

وبعد هذا التحليل في إيجاد أواصر التقارب بين منهج السماع وبعض أسس المناهج [illegible]انية الحديثة نخلص إلى القول:

– إن ثقافتنا اللغوية ثرية بكثير من الأفكار العلمية التي مازالت نافعة للدرس اللساني، نحتاج إلى نفضها و تشكيلها حسب المعطيات الحديثة.

– إن القول بجدية المناهج اللسانية الحديثة لا يبرر سبق الغربيين لاكتشافها، ذلك أن الناظر في درس العربية يقف على تقدم اللغويين العرب في هذا الضرب من المعرفة.

– يعتبر منهج السماع من أهم مناهج الدراسة في كثير من علوم الحضارة الإسلامية النقلية والعقلية ونلح على تتبع بعض خطواته فيها، ذلك أن المناهج الحديثة قد ربطت بأصول المعرفة القديمة المتجددة، فلا حرج أن نعيد بعثه وإظهار الجديد فيه.

الهوامش:

[1] – يقع اللبس في مصطلح علم اللغة الذي استخدم في تراثنا العربي للدلالة على أغراض لغوية منها:

أ– دراسة الألفاظ و مدلولاتها، ينظر. عبده الراجحي ، فقه اللغة في الكتب العربية طبعة دار النهضة العربية ، بيروت ، ص 37 و تمام حسان ، علم اللغة بين التراث و المناهج الحديثة ، طبعه دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، ص09

ب– هو العلم الذي تنضوي ضمنه الأغراض اللغوية فهو بيان موضوعاتها، ينظر ابن خلدون ، المقدمة تح مجموعة من العلماء ، دار الرائد و دار الفكر 1980 ص 487

[2] – له مسميات أخرى، أشهرها وأهمها، علم اللسان واللسانيات والألسنية والألسنيات واللغوية كل ذلك ترجمة للمصطلح الإنجليزي **linguistics**، ينظر أحمد مختار عمر، محاضرات في علم اللغة الحديث طبعة عالم الكتب، القاهرة 1995 ص 31 و ما بعدها.

[3] – ابن جني ، الخصائص ، تح ، على النجار طبعة دار الكتاب العربي ج 1 ص 33.

[4] – د. حلمي خليل ، مقدمة لدراسة علم اللغة ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1995 ، ص 07 .

[5] – أثنى محمد حسن عبد العزيز على كتاب الخصائص لابن جني لما حوى من أراء لغوية صائبة، قال عنه إنه كنز في أصول اللغة و مناهج البحث فيها، ينظر مصادر البحث اللغوي، دار الكتاب الجامعي للنشر و التوزيع ط1، ص 1997 ص 256.

[6] – د. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت 1976، ص 334.

[7]- د. عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة و الدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة جهوية، أبريل 1987 الرباط، طبعة دار الغرب الإسلامي ص 373.

[8]- الخصائص ج 1 ص189.

[9]- الإغراب في جدول الإعراب و لمع الادلة تح سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق 1957 ص 81

[10]- د. حلمي خليل العربية و علم اللغة البنوي ، دراسة في الفكر اللغــوي العــربي الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، إسكندرية 1995 ص 32.

[11]- السيوطي ، الاقتراح في علم أصول النحو ، محمد قاسم ، مطبعة الســعادة ط 1 1976 ص 84.

[12]- منهم د. محمد عيد، كتابه في اصول النحو العربي طبعة عالم الكتــب 1987، ص 17 و مابعدها.

[13]- سورة ق / 37.

[14]- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار صادر مادة (سمع) ج 8 ص 162.

[15]- مباحث في النظرية الألسنية و تعلم اللغة طبعة المؤسســة الجامعيــة للدراســات والتويزيع لبنان ص 27.

[16]- داود عبده، دراسات في علم اللغة النفسي، مطبوعات جامعة الكويــت 1984، ص 17.

[17]- د. أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 24.

[18]- ابن خلدون: المقدمة، ص 183.

[19]- الخصائص، ج 1 ص 35.

[20]- حلمي خليل، اللغة والطفل، دار المعرفة الجامعية ص 30.

[21]- الرعد/29 والآية المتواترة (طوبى لهم وحسن مآب) وقراءة الكسر (طيبى) شاذة، ينظر ابن خالويه، مختصر شواذ القرآن، مكتبة المتنبي، القاهرة ص 71. وقال أن في قراءة (طوبى) عشرون قولا ودلنا على أنها موجودة في كتابه إعراب القراءات وعللها، وهي غير مذكورة بتاتا في أي من كتبه(الحجة، إعراب ثلاثين سورة، ليس في كلام العرب...

[22]- الخصائص ج 1 ص 75، 76.

[23]- د.حنفي بن عيسى، الاسس النفسية لتعليم العربية مجلة همزة وصل، وزارة التربية الجزائرية 1991، ص 33

[24]- ابن فارس الصاحبي في فقه اللغة العربية مسائلها وسنن العرب في كلامها، قدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر ط1، 1963، ص 62.

[25]- وضع ابن جني بابا في ذلك سماه"اختلاف لغات العرب وكلها حجة" ينظر الخصائص ج2 ص10.

[26]- ابن مالك، شرح التسهيل، تح عبد الرحمن السيد، طبعة الأنغلو المصرية 1974 ج 1 ص 48

[27]- دي سوسير ، دروس في الألسنة العامة ، ترجمة صالح القرمادي و رفيقيه، طبعة الدار العربية للكتاب، تونس — ليبيا ص 285.

[28]- صنف بعض اللغويين المحدثين البيئات العربية إلى صنفين حسب التغاير الحركي في بنية الكلمة ورتبوا: ضم وكسر وفتح وجعلوا للحضر الفتح مقارنة بالحركتين الأوليتين، وله الكسر مقارنة بالضم وللبدو الضم والكسر وهذا ترجيح يحتاج إلى متابعة علمية دقيقة، ينظر القائلين هذا التنظير:

د- إبراهيم أنيس في اللهجات العربية، مكتبة الانجلو المصرية، ط5، 1973 ص56.

د- علم الدين الجندي، اللهجات في التراث، الدار العربية للكتاب تونس — ليبيا .ج 1 ص260 .

د- عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعي 1996 ص 100.

د- رمضان عبد التواب التطور اللغوي مظاهره وعلله، مكتبة الخانجي،1997، ط3 القاهرة، ص 57.

والملاحظ أن هذا التفسير قد استلهم من أفكار المستشرق الألماني بريجشتراسر التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه رمضان عبد التواب، مكتبه الخارجي ط4 2003 ، ص 26.

[29]- محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، ص 15، 16.

[30]- هذا المنهج نتاج الدراسة الشرعية، فهو منهج القراء ينظر ما نقله ابن الجزري عن أبي عمرو الداني (ت 444 هـ) وملخصة، أئمة القراءة لا تعمل إلا على الأثبت في الأثر، ينظر النشرج1ص86، وهو منهج المحدثين ينظر مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة و النحو ط، دار الرائد العربي 1986، ص 48.

[31]- محمود سمير نجيب اللبدي، معجم المصطلحات النحوية والصرفية مطبعة أمزيان الجزائر ص 106.

[32]- المزهر في علوم اللغة، ج 1 ص 59. وهذا الرأي الذي ذكره السيوطي غائب فيما عندنا من كتب ابن جني، والذي نرجحه أن يكون السيوطي نقله حفظا من كتب ابن جني المفقودة.

[33]- م ن 1 ص 57.

[34]- تمام حسان اللغة بين المعيارية والوصفية ص 152 وما بعدها.

[35]- عمل الرواة بهذا القانون، فانتخبوا قبائل مشترطين فيها سلامة اللغة — العروبة- الانعزال، ينظر، سعيد جاسم الزبيدي، القياس في النحو العربي ط، دار الشروق عمان ص 121.

[36]– الجاحظ، البيان والتبيين، قدم له علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال ط ح بيروت 1992 – ج2 ص 135.

[37]– ابن خلكان وفيات الأعيان وإنباء أنباء الزمان، تح، إحسان عباس، مطبعة بيروت 1969، ج3، ص 466.

[38]– عبد الله بن حمد الخثران، مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 1993، ص 170.

[39]– ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تح، محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة الأندلس، بغداد 99.

[40]– يمكن تصنيف هذا العمل العلمي، ضمن خطوات علم الدلالة، الذي عني بوضع المفردات في مجالات تسمى الحقول الدلالية (les champs sémantiques) ينظر

- Mounin – (G) clefs pour la linguistique P 144
- Gurand (P) op- cit – P : 75
- Lyons (J) élément de sémantique P 208

[41]– السيوطي، الاقتراح، ص 81

[42]– د– عبده الراجحي النحو العربي و الدرس الحديث، بحث في المنهج، دار النهضة العربية 1979، ص 114، 115.

[43]– د– محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب القاهرة 2001، ص 96.

[44]– سيبويه، الكتاب، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت ط 63 1988، ج 1 ص 309.

[45]– م ن ج1، ص 349.

[46]– م ن ج 1 ص 412.

[47]– م ن ج1، ص 423.

[48]– الخصائص، ج 2، ص 21، و ينظر (باب في الشيء يسمع من العربي الفصيح، لا يسمع من غيره)

[49]– م ن ج2، ص 25.

[50]– م ن ج1، ص 242.

[51]– مصطلح عربي أصيل مرسخ في تراثنا العلمي، يقابله باللغة الفرنسية: L'informant

[52]– ماريوباي: أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ط 3 عالم الكتب، القاهرة 1987، ص 120.

[53]– الزبيدي، لحن العامة، تح، عبد العزيز مطر، دار المعارف القاهرة 1968 ص57.

[54]– الروم: مصطلح صوتي، معروف عند علماء التجويد والقراءات وعند النحويين وهو تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها فيسمع لها صويت خفي يدرك معرفته الأعمى بحاسة سمعه و يكون غالبا في المضموم والمكسور.

عندنا نعبر عنه بهذه المعادلة الرياضية: الروم = 1/3 حركة ينظر غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد مطبعة الخلود ط1، بغداد 1986، ص510.

[55]– الخصائص ج2 ص 76، 77.

[56]– الفارسي، التكملة، تح، كاظم بحر المرجان، طبعة عالم الكتب 1999 ص350.

[57]– النحو العربي والدرس الحديث ص 111.